دارسة موازنة في شعر الهجاء بين الحُطَيْئة و أبي الشمقمق

أ . فوزية أمطير بيري ـ كلية التربية العجيلات ــ جامعة الزاوية

مقدمة :

لقد فُطر الناس على حب المفاضلة بين الوسائل التي ترمي إلى غرض واحد ، والموازنة هي دراسة من بين الأنواع التي ترجع إلى أصل واحد ، وهي دراسة نقدية في الأدب يُراد بها التمييز بين الجيد والرديء ، وتظهر بها وجوه القوة والضعف ، وقد عُرف في الجاهلية تحاكم الشعراء إلى النابغة الذبياني في قبته الحمراء في سوق عكاظ .

وهذه الدراسة انحصرت بين شاعرين عاشا في زمنين مختلفين ، الأول عاصر الجاهلية والإسلام ، والثاني عاصر أواخر الدولة الأموية وبداية الدولة العباسية .

وتهدف هذه الدراسة إلى إلقاء الضوء على شاعرين تركا أثراً كبيراً في تاريخ الأدب العربي ، وذلك من خلال إبراز أوجه التشابه والاختلاف بينهما ، ونظراً لبراعة الشاعرين الحُطيْئة وأبى الشمقمق في الغرض الشعري **" الهجاء "** وقعت هذه الدراسة الموازنة التي تجلت بعدة مطالب تتمثل في :

1- المطلب الأول : التعريف اللغوي والاصطلاحي للفظة الهجاء .

والتعريف بالشاعرين :

أولاً – الحُطيْئة .

ثانياً – أبو الشمقمق .

2- المطلب الثاني : دوافع الهجاء عند الشاعرين .

أولاً- دوافع الهجاء عند الحُطيْئة .

ثانياً- دوافع الهجاء عند أبي الشمقمق .

3- المطلب الثالث : أولاً – الموازنة بين قصيدة الحُطيْئة (مدحتكم عمداً) وقصيدة أبي الشمقمق وهي لا تحمل عنواناً

ثانياً _ يتمثل في الموازنة بين الشاعرين .

– أوجه التشابه .

– أوجه الاختلاف .

4- الخاتمة وتتمثل في النتائج التي ترتبت عليها الدراسة

المطلب الأول – التعريف اللغوي و الاصطلاحي للفظة الهجاء :

1- الهجاء في اللغة :

هجاه هجواً ، وهجاءً ، أي شتمه بالشعر وتقول هاجيته وهجوته ، وهو خلاف للمدح ، والمرأة تهجو زوجها أي تذم صحبته .(1)

2- الهجاء في الاصطلاح:

الهجاء هو وصف الشخص أو القبيلة أو الحزب بما يتنافي مع العدل والمروءة ، وقد كان الهجاء غرضا من أغراض الشعر العربي .

وكان عرب الجاهلية يتطيَّرون منه ويتشاءمون ، لذلك كانوا يتحاشون هجاء الشعراء بشتى الوسائل كي لا يصيبهم ما صبَّه الشعراء عليه من مثالب ولعنات . (2)

ثانياً ـ التعريف بالشاعرين :

1- الحُطيْئة :

شاعر عاش وحيداً متفردً بأحزانه ، لا يُعرف له أهل أو أصل أو نسب ، مقطوع الجذور مرفوضا من القبائل الأخرى ، يعاني الحرمان ، السبب الذي جعله يتخذ الشعر سلاحاً يغتصب به أعراض الناس ، ويدفع عدوان الآخرين عليه.

اسمه : أبو بكر مليكة ، جرول بن أوس العبسي ، لُقب بالحُطيْئة لقربه من الأرض أي قصير القامة ، وهو شاعر مخضرم جاهلي أدرك الإسلام ، قال عنه ابن سلام " كان الحُطيْئة متين الشعر شرود القافية ، وكان سؤولاً جشعا " .(3)

ولأنه كان مضطرب النسب غير صريح القرابة ، طلب الالتحاق بزوج أبيه ، ولكن لم يجد عندهم خيراً فهجاهم ، وانصرف عنهم وأصبحت حياته بعد ذلك في تنقل مستمر من قبيلة إلى أخرى ، ومنها تضاءلت في نفسه حوافز الشرف والإباء ، وانقبضت فيه عواطف الحياء ، وعلى الرغم من أنه أسلم في أواخر حياته غير أنه لبث فاسد الدين لا يكف عن الهجاء .(4)

لقد أتقن الحُطيْئة الهجاء حتى خافه الناس ، الأمر الذي جعل الناس تتجنب هجاءه ، بل لم تسلم نفسه من هجائه .

2- أبو الشمقمق :

هذا الشاعر شهد نهاية عصر بني أمية ، وعاش بقية حياته في أحضان بني العباس ، وهو – أيضاً – مخضرم .

عاش فقيراً طيلة حياته ، كان سيء الحظ ، مما دفعه إلى انتحال سلوك غريب من نوعه ، وهو طريق التسلط على أبناء جنسه من الشعراء ، وذلك بغرض الجزية ، فيدفعونها عن يد وهم صاغرون ، مداراة لسفاهته وسلاطة لسانه .

واسمه مروان بن محمد ، معروف بأبي الشمقمق ، نشأ في البصرة ، وهو خراساني الأصل ، ولقب بالشمقمق ومعناها : الطويل الجسيم من الرجال

وقد غلب اليأس عليه ، وكثيراً ما يكون منطوياً على نفسه والسبب يرجع إلى ضيق حاله ، فليس له حظ مع الأغنياء والحكام ، ولكنه له علاقات وحكايات طريفة مع الشعراء المكثرين أمثال - بشار بن برد ، وأبي العتاهية ، وسلم الخاسر .(5)

أما شعره فقد قال عنه المبرد : " كان أبو الشمقمق ربما لَحَنَ ويهزِلُ كثيراً ، ويجُدُّ فيكثر صوابه " .(6)

وقال عنه ابن المعتز : " وشعر أبي الشمقمق نوادر كله .(7)

أما المرزباني فقال عنه " إن شعر أبي الشمقمق فيه هجاء كثير .(8)

ومن خلال ديوانه كان في شعره كثير الهجاء للأمراء والشعراء وغيرهم بلسان سليط لا يردعه رادع ديني ، ولا أخلاقي ، وأكثر ألفاظه بذيئة .

المطلب الثاني ــ دوافع الهجاء عند الشاعرين :

أولاً- دوافع الهجاء في شعر الحُطيْئة :

يرجع هجاء الحُطيْئة في مرحلته الأولى إلى الاختلال النفسي والجسدي ، فالشاعر كان مشكوكاً في نسبه ، أي أن عدم اهتدائه لأبيه ، جعلت منه عقدة لزمته طول حياته وبالتالي كان حاقداً على مجتمعه بالكامل .

وشعره خير دليل على ذلك ، فها هو يظهر نقمته على أبيه وعمه وخاله في قوله :

لَحَاكَ اللهُ ثُمَّ لَحَاكَ حَقّاً و لَحَاكَ من عمٍّ وخالِ
فَنِعْمَ الشّيْخُ أنتَ على المخازي وَبِئْسَ الشّيْخُ أنْتَ لدى المَعالي
جَمعْتَ اللّؤمَ – لا حَيّاك رَبّي وأبوَابَ السَّفاهةِ والضَّلالِ(9)

يقول : لقد قبحك الله ولعنك ، وقبح من عم وخال ، فأنت نعم الشيخ فيما يخزي وأنه سفيه الرأي .

كما نراه هجا أمه التي يرى أنها مصدر شقائه وسبب بلائه ومحنته قائلاً :

جَزَاكِ اللهُ شرّاً مِنْ عَجُوزٍ وَلَقّاكِ العُقوقَ مِنَ البنينا
تَنَحَّي فاجْلِسِي مِنَّا بَعِيداً أَرَاحَ اللهُ مِنْكِ العَالمينا
أغِرْبالاً إذا اسْتُودِعْتِ سِرّاً وَكانُوناً عَلى المُتَحَدِّثِينا

أَلَمْ أُوضِحْ لَكِ البغضاءَ مِنِّى ولكِنْ لا أَخَالُكِ تعْقِلِينا(10)

فهو يدعو على أمه بالشر وأن تلقى العقوق من أبنائها ثم يطلب منها تتنحى من أمامه ، وأن يُريح الله منها العالمينا ، و وصفها بالغربال فهي لا تكتم الأسرار ثم يقول لها بأنني أُبْغِضيك ولكنك لا تعقلي ذلك .

ثم أنه يسأل أمه عن النسب الذي تعتقد أنه يتصل به ، إلا أن أمه تخلط عليه في الإجابة ، فيقول :

تقول لي الضراء لست لواحدٍ ولا اثنين فأنظر كيف شِركُ أو لئكا

وأنت أمروٌ تبغي أباً قد ظللته هبلت ، أَلمَّا تستفق من ضلالكا(11)

فجواب أمه لم يشف غليله .وفي أبيات أخرى يهجو أمه وقوم بني بجاد من عبس قائلاً :

ولَقدْ رأيْتُكِ في النساء فسُؤتِني وأبا بَنَيكِ فساءني في المَجْلِسِ

إنَّ الذَّليلَ لَمنْ تَزُورُ رِكابُهُ رَهْطَ ابن جَحْشِ في مَضِيق المحبسِ(12)

كما نراه يهجو قومه قائلاً :

لَعَمري لَقدْ جَرَّبْتُكُمْ فَوجدتُكُمْ قِبَاحَ الوُجُوهِ سَيّئي العِذَرَات

لهُمْ نفرُ مِثلُ التُّيُوسِ وَنِسْوَةٌ مَمَاجِينُ مِثْلُ الآتُنِ النعرات (13)

والشاعر يقول بأنه جرب قومه فوجدهم بأنهم قومٌ تضيق أفنيتهم عن جيرانهم وضيفانهم ، فهم لا يضيفون أحداً ولا يجيرون أحداً .

ونراه – أيضاً – يهجو أخويه من أمه قائلاً :

لا تَجْمعا مالي وعِرْضِيَ باطلاً كَلاَّ لَعمْرُ أبِيكُما حَبّاقِ

وكلاِكُما جَرّت جعار برجْلِهِ يتنين بين مَشِيمَهٍ وَمَلاقِ (14)

فهو يقول لأخويه بأنهما خسيسان وأنهما خرجا من بطون أمهما بأرجلهما قبل رؤوسهما ، وذلك هو اليتن وهو أردأ الولادة ، و يأمرهم بأن لا يجمعا ماله وعرضه ، أي لا تستأثرا لميراثي وأن تمنعا عني نسبكما الذي أحفظ به عرضي ، فإن ذلك لا يجد بكما لأن أباكما حقير ذليل ، شديد نتن الريح.

وفي هذا الهجاء سب موجع ومؤلم ، لن السبب يرجع إلى إثبات شخصه بين قومه الذين لم يقبلوا به بينهم .

أما الاختلال الجسدي فيتمثل في قبح مظهره وتكوينه الخلقي وقصر قامته فيقول يهجو نفسه قائلاً :

أبتْ شَفَتايَ اليَوْمَ إلاّ تكلُّماً بشَرٍّ فما أَدْري لِمَنْ أنا قائِلُهْ

أرى لِيَ وَجْهاً شَوَّهَ اللهُ خَلْقِهُ فَقُبِّحَ مِنْ وَجْهٍ وقُبّحَ حامِلُهُ (15)

فقبحهُ زاده من المعاناة ، فحملته شفتاه على الاستياء من نفسه والسخرية بها ،عندما نظر نفسه في المرآة ورأى وجهه ، فسب نفسه .

ومن دوافع الهجاء عند الحُطيْئة الحاجة إلى المال ، فقد عُرف عنه أنه كان فقيراً ، الأمر يجعله يلجأ إلى الهجاء متكسباً ، فكان من يخشى أذى الناس لسانه يعطيه ، ومن أمثلة ذلك هجاؤه الزبرقان بن بدر قائلاً :

ما كان ذنبُ بغيض أن رأى رجلاً ذا فاقةٍ عاش في مستوعر شاسِ
جاراً لقومٍ أطالوا هُون مَنزِلِهِ وغَادَرُوهُ مُقِيما بين أَرْمَاسِ
مَلُّوا قِرَاهُ وهَرَّتَهُ كِلابُهُم وجَرَّحُوهُ بأنْيابٍ وأضراسِ
دَعِ المَكارِمَ لا تَرْحَلْ لِبُغْيتِها وَاقْعُدْ فإنَّك أنتَ الطاعِمُ الكاسي (16)

وجاء هجاء الحُطيْئة في هذه الأبيات ظُلما للزبرقان ، عندما نزل عليه ضيفا وقد أكرمه ، وقد بلغ ذلك بغيض بن شمّاس فأراد الإيقاع بين الرجلين فاستمال الحُطيْئة إلى جانبه ويستعين به على الزبرقان وأغراه على أن يهجو الزبرقان ، وقد بلغ في مسعاه كل مبلغ ، حتى جعل الحُطيْئة يرسل سهامه إلى الزبرقان فيدميه ويحط من قدره ، الأمر الذي جعل الزبرقان يشكو إلى خليفة المسلمين عمر بن الخطاب ، فأمر الخليفة بحبس الحُطيْئة ، فاستعطف الحُطيْئة عمر بعدة قصائد كان منها قوله :

ماذا تَقُولُ لأفْراخٍ بذى مَرَخٍ حُمْرِ الحَواصِلِ لا ماءٌ ولا شجرُ
ألقيت كاسَبُهمْ في قَعْرِ مُظْلِمَةٍ فأغْفِرْ عليك سَلامُ اللهِ يا عُمَرُ (17)

وقد عفا عنه عُمرُ .

وكان الحُطيْئة كلما حلَّ ضيفا على شاعر أو غيره رُحِّبَ به خوفا من لسانه .

وتراه – أيضاً – يهجو ضيفا نزل به قائلاً :

وَسَلَّمَ مَرَّتْينِ فَقُلْتُ مَهْلاً كفَتْكَ المرَّةُ الأولى السَّلاما
وَتَقْتَقَ بَطْنُهُ وَدَعا رُؤاساً لِمَا قَدْ نَالَ مِنْ شِبَعٍ ونَاما (18)

أي أن الرجل سلَّم عليه مرتين فقال : السلام مرة ثم إنه بعد أن شبع قرقر بطنه ونادى بأنه من رؤاس بني كلاب .

ومن هنا تجلت الرؤية عن هجاء الحُطيْئة الذي كانت وراءه عدة دوافع منها :

1- اختلاله النفسي والجسدي .
2- الفقر والحاجة .

2-دوافع الهجاء عند أبي الشمقمق :

ترجع دافع الهجاء عند أبي الشمقمق إلى دوافع نفسيه تتمثل في الفقر والحاجة مند الصغر ، فقد ولد فقيراً ، ولازمه النحس طول عمره ، فهو لم يجد الحظ لدى الأغنياء والحكام والأمراء وغيرهم .

ومن هنا لجأ إلى الهجاء للثأر والنيل ممن منعوا عنه العطاء ، خاصة ذوي الأموال وتفنن في ذلك ، وشعره خير دليل على ذلك ، وها هو يقول ذاكراً أسماء من هجاهم قصد التشهير بهم دون خوف أو رهيبة :

وهذا جميلٌ على بَغْلِهِ وقد كان يَغْدُو على رِجْلِهِ
يَروُحُ وَيَغْدُو كأي الحمارِ ويرجِعُ صِفراً إلى أهلِهِ
وقد زَعَموا أنَّهُ كافرٌ وأنَّ التَّزَنْدُقَ في قتلهِ (19)

نجد الشاعر أبا الشمقمق قد ذكر المهجو باسمه " جميل " ويقصد به جميل بن محفوظ ، قائلاً عنه إنه يركب بغلته وقد كان يغدو على رجليه ، ويروح ويغدو كالحمار ويرجع لا يحمل شيئاً ، واتهمه بالكفر والزندقة .

وهجا الممزق الحضرمي بقوله :

كُنْتُ المُمَزِّقَ مرَّةٌ فاليوم قد صِرْتَ المُمَزَّقْ
لمَّا جَرَبْتَ مع الضَّلالِ غَرقْتَ في بَحْرِ الشَّمَقْمَقْ (20)

وفي هذا الهجاء نوع من الانتصار لنفسه ، فهو يخاطب الممزق الحضرمي بأنك كنْت المُمَزِّق وأصبحت اليوم المُمَزَّق ، وقد استعمل صيغتي الفاعل والمفعول ، فقد كان فاعلا المُمَزِّقْ ، تم بصيغة المفعول المُمَزَّقْ .

ويقول يهجو رجلاً اسمه " سعيد بن سلم الباهلي " .

هيهات تَضْرِبُ في حديدٍ باردٍ إن كُنْتَ تطمعُ في نوال سعيد
والله لو ملك البحَارَ بأسرها وأتاه سَلْمٌ في زمان مُدُود
يبغيه منها شَربة لطهُوره لأبى وقال تيمَّمَنْ بصعيدِ (21)

هيهات اسم فعل يعني بعَدُ ، أي أنه من غريب الأمر أن يستقيم الحديد وهو بارد ، أو أن تطمع في شيء عند سعيد ، فلو ملك البحار وجاءه أحدهم يطلب قليلا من الماء للطهارة لرده وأمره أن يتيمم بالتراب .

ومن أبشع هجائه وأفحشه قوله في رجل يقال له "سران " :

ألاَ قُولا لسرَّانِ المخازِي ووجه الكلب والتَّيْس الضروط
لهُ بطنٌ يَضِلُّ الفيل فيه وذُبْرٌ مثلُ رَاقود التَّشُوطِ

وأيْ عارِمٌ لا خيرَ فيه كَدَوْرِ سفينة في بَثْق رُوطِ
إذا نهض الكرامُ إلى المعالي تَرىَ سرَّان يسفُلُ في هَبُوطِ (22)

فالمخازي ، الهوان والذلّ ، والتيْس/ ذكر المعز ، ويضل/ يختفي فيها ، والتشوط نوع من السمك ، وأراد الشاعر أن يقول لسران :- بأنه ذليل ووجهه كالكلب والتيس ، وبطنه كبير يمرح فيه الفيل ، الروط هو النهر المجمد شديد البرودة فيكسر كي ينشق الماء منه ، و إذا نهض الكرام إلى ركوب المعالي ، فإنك يا سرَّان تنزل في هبوط .

وقال في رَجْلٍ أعرج :

رِجْلُ زيد بنِ عُمَارَه مثلُ مِفْتاحِ منارَه (23)

وكانت رِجْلُ الرَجُلِ شديدة الإعوجاج ، فسخر منه وهجاه بأنها تشبه مفاتيح المزاليج.

كما هجا حاجاً قائلاً :

إذا حججتَ بِمَالٍ أَصْلُهُ دَنَسٌ فَمَا حججتَ ولكنْ حجّت العِيرُ

لا يقبلُ اللهُ إلاّ كُلَّ طيبةٍ مَا كلُّ مَنْ حَجَّ بيتَ اللهِ مَبْرُورُ (24)

والدنس / المال الحرام ، والطيبة الحلال ، المبرور المقبول .

والدافع الثاني قد يكون – والله أعلم – الحسد والحقد الذي يحمله للشعراء مثله ، من لهم مكانة بين الحكام ، في الوقت الذي لم يستطع هو الوصول إليه ، وبالتالي كانت له حكايات مع الشعراء ، وكيف كانوا يخافون هجاءَه ، وقد ألزمهم بدفع الجزية وهم صاغرون ، ومن هؤلاء الشعراء " بشار بن برد "

حيث كان بشار يعطي لأبي الشمقمق في كل سنة مائتي درهم وجاءه يوما يطلب منه الجزية قائلاً : أعطني الجزية يا أبا معاذ .

فقال بشار : ويحيك أجزية هي ؟ قال : هو ما تسمع ، فقال بشار يمازحه : أأنت أفصح مني ؟ قال : لا ، قال : أأعلم مني بمثالب الناس ؟ قال :لا ، قال أفأشعر مني ؟ قال : لا ، قال : فلِمَ أعطيك الجزية ؟ قال : لئلا أهجوك ، قال : إن هجوتني هجوتك ، فقال : هكذا هو ، قال : قل ما بدا لك ، قال أبو الشمقمق :

إني إذا ما شاعرٍ هجانيه ولجَّ في القول له لسانيه
أدخلتهُ في است أُمّه علانيه بشار يا بشار ... (25)

وأراد أن يقول : يا بن الزانية ، فوثب بشار فأمسك فاه ، ودفع إليه مائتي درهم .

وكذلك مع الشاعر مروان بن أبي حفصة ، جاءه يوما وقد سمع أنه نال من الخليفة المهدي ثلاثين ألفا ، فقال الشمقمق أجزني عن الجائزة ، فقال مروان : أنا وأنت نأخذ ولا نعطي فقال : فاسمع مني بيتين :

لحية مروان تقي عنبرا خالط مِسْكاً خالصا أذْفَرَا
فما يُقِيمَا بها ساعة إلاّ يَعُودانِ جميعا خَرَا (26)

فأمر له بدرهمين .

ومن هجائه لأبي العتاهية ، معترضا عليه ملازمته المخنثين ، وقد قال يوما أبو العتاهية :

مددتُ كفى نحوكم سائلاً ماذا تَرُدُّون على السائل (27) ؟

فرد عليه أبو الشمقمق :

تَردُ في كفك ذا فيشة يشفي جوى في استِك من داخل (27)

فقال أبو العتاهية : شمقمق والله ، وقام مبغضاً ، وكذلك هجا سلماً الخاسر وقد طلب منه أن يهب له شيئا فلم يفعل ، فقال فيه الشمقمق :

يا أم سَلْم هداك الله زورينا كيما تَنِينا فرداً أو تنينا
ما إن ذَكَرتُك إلاّ هاج لي شبقٌ ومثل ذِكراكِ أُم السَّلْم يشجينا (28)

فأعطاه خمسة دنانير .

هكذا كان أبو الشمقمق يستقصى أخبار الشعراء ، حتى إذا ما حصل أحدهم على جائزة ، قصده أبو الشمقمق ليتمكن من نيل شيء ولو كان قليلا .

وفي آخر هذا المطلب نرى أن أبا الشمقمق اندفع إلى الهجاء وذلك لاختلاله النفسي ، فهو يحس بالنقص لفقره وحاجته وسوء حظه الذي لازمه طول حياته ، لذلك جعل من لسانه سلاحاً متدبراً به أمره ، فهو لم يكن شيئا مذكوراً إلاّ أن ما تركه من إرث في الهجاء جعل منه مشهوراً معروفاً.

المطلب الثالث ــ الموازنة بين الشاعريين :

أولاً : الموازنة بين قصيدة الحطيئة (مدحتُكُمْ عَمْداً) وقصيدة أبي الشمقمق " بدون عنوان "

يقول الحُطيئة :

واللهِ ما مَعْشَرٌ لاَموا امْرَأً جُنُباً من آلِ بن شمَّاسٍ بأكْيَاسِ
ما كان ذَنْبُ بَغَيضٍ لا أبا لَكُمْ في بائسٍ جاء يحدو آخر الناس
لَقَدْ مَرَيْتَكُمْ لو أنَّ دِرَّتكُمْ يَوْماً يَجَيء بها مَسْحي وإبْساسي
وقد مَدَحْتُكُمْ عمداً لأرْشِدَكُمْ كيما يكون لكُمْ مَتْحي وإمْراسي

فما ملكتْ بأن كانت نُفُوسُكُمْ كَفَارِكِ كرِهَتْ ثَوْبي وإلباسي

لمّا بَدأ ليَ مِنكُمُ غَيْثُ أنْفُسِكُمْ وَلَمْ يَكُنْ لِجراحي مَنكُمُ آسي

أزْمَعْتُ يأسا مُبِيناً مِنْ نَوَالِكُمْ وَلَنْ تَرى طارِداً للحُرِّ كالياسِ

ما كان ذَنْبُ بَغَيضٍ أنْ رأى رَجُلا ذا فَاقةٍ عاش في مستوعِرِ شاس

جاراً لِقَوْمٍ أطالُوا هُونَ منزِلِهِ وَغَادَرُوه مُقِيما بَيْنَ أَرْمَاسِ

ملوا قِراه وهرَّتْهُ كِلابُهُمْ وَجَرَّحُوهُ بأنْيابٍ وأضراسِ

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعُد فإنك أنت الطاعم الكاسي

سِيرِي أمام فإنّ الأكْثَرِينَ حصىً والأكْرَمِين أباً مِنْ آلِ شمّاسِ (29)

هذه الأبيات من قصيدة "مدحتكم عمداً" وهي تحتوي على غرضين المدح لغيض بن شماس والهجاء للزبرقان بن بدر ، وقد اخترنا هذه القصيدة كدليلٍ على هجائه الذي أحكم غاياته ، وصبَّ فيها جُلَّ نقمتهِ على الزبرقان ، وقد بدأ قصيدته بالقسم كي يجعله توكيداً لأمره ، ساعيا فيه إلى تبرير هجائه ؛ حتى لا يُساءُ الظن به بأنه تنكر لمعروف الزبرقان حين أواهُ وألحقه بدياره ، وأكرم مثواه ، لذلك سعى لتبْرير ذلك الانتقال ، ومهد له بضرب من المقارنة بين القديم وواقعه الجديد ، وهي مقارنه توخّى من خلالها أن يؤكد صواب ما أقدم عليه ، وإقناع من يلوم عليه بانتحائه جانب الحق والرأي والسلوك القويم ، كما توخَّى أيضاً إثارة حفيظة المهجو والنيل منه والانتقاص من قدره ، حين جعله في تلك المقارنة يبنه وبين أعدائه شخصياً في منزلة أدني ، بحيث لا يستطيع أن يلحق بآل غيض بن شمّاس ، فقد عمد الحطيئة إلى وصف الزبرقان بالأوصاف الحسية ، فقد ترك الحطيئة في بؤس وفاقة ، ولم يرعَ حق جيرته ، وقد حاول أن يلفت نظره في مدائح قدَّر لها أن تثير فيه حمية الكرَّم والنوال ، إلاَّ أنها لا تجد أذنا مصغية من رجل غدا كالضرع الناشف الذي لا ينفع فيه المسح والإبساس ، وكالبئر الفارغة التي لا يجدي فيها المتحُ والإمراس ، ولذلك راح الحطيئة ينتظر الفرج حتى مل الانتظار ، وأحس أنه أصبح بالنسبة إليه كالمرأة الفارك التي كرهت زوجها فاختار عندئذ الطلاق والالتحاق بقوم تداركوه في اللحظة المناسبة ، وأكرموا وفادته ومثواه .

ثم ختم بقول _ دع المكارم لا ترحل لبغيتها_ ، فهو يسخر من الزبرقان فقد جرده من كل صفات المروءة والشهامة والسيادة وفي قوله :_ أُقْعُد _هجاء يفوق كل إقذاع واستخفاف مهين للزبرقان .

والشاعر اختار من اللغة ما هو كفيل بإيذاء الخصم وتجريحيه وانتقى من الألفاظ أجزلها وأبعدها من كل ناب ومعيب في قوله :

ما كان ذنب بغيض في بائس _ جاء يحدو ...]

[لقد مريتكم ... مسحي وإبساسى]

[... منحي وإرماسي]

[كفارك كرهت ثوبي وإلباسي]

[... عيب أنفسكم ولم يكن بجراحي فيكم آسى]

أي بعدما فعلتم في العيب ، هجوتك

[أزمعت بأسا ...] يئست منكم

[ما كان ذنب بغيض] مدح لبغيض

[جاراً لقوم ...] فقد جاورهم وجعلوه مهاناً ، ومنزله

[بين القبور] بقوله _ أرماس _

[مَلُّوا قِراه ، وهرته كلابهم _ وجرَّحوه بأنياب وأضراس]

[دع المكارم ...]

فالقصيدة كانت مترابطة الأفكار والمعاني ، واستخدم فيها أسلوب الموازنة والمفاضلة ؛ كما أحسن توظيف الصور الشعرية المختلفة ، وذلك بفضل خصوبة خياله الشعري .

قصيدة أبي الشمقمق :

قد مَرَرْنَا بمالكِ فَوَجَدْنَاهُ جواداً إلى المَكارم يَنْمَي

ما يُبَالِي أتاهُ ضَيْفٌ مُخِفٌّ أمْ أتَتْهُ يأجُوجُ مِنْ خَلفِ رَدْمِ

فَانْتَهَيْنَا إلى سعيد بن سَلْمٍ فإذا ضَيْفُهُ من الجوع يَرْمِي

إذا خُبْزُهُ عَلَيْهِ سَيَكْفِيـــ ـــــكَهُمُ اللهُ ما بَدَا ضَوْءُ نَجْـــــــمِ

وإذا خَاتَمُ النَّبِـــيِّ سُلِيْمَـــــــانَ بْنِ دَاوودَ قد علاهُ بِخَتْمِ

فَارْتَحَلْنَا مِنْ عِنْدِ هذا بِحَمْدٍ وَارْتَحَلْنَا مِنْ عندِ هذا بِذَمِّ (30)

هذه الأبيات هي مقطعة شعرية في غرضي المدح والهجاء ، فالشاعر أبو الشمقمق يمدح مالك بن علي الخزاعي ، وهو قائد من أشراف عصره ، كان جواداً كريماً .

ويهجو سعيد بن سلم الباهلي والي الموصل وأرمينية ، وكان مقتراً بخيلا .

فقد عمد الشاعر هنا للمفاضلة والموازنة بين الرجلين ليظهر كرم الممدوح ، والنيل من المهجو وإثارة حفيظته والانتقاص من قدره .

ففي أول المقطعة يمدح مالك بأنه عندما مر الضيف بمالك وجده جواداً ، وهو لا يبالي بمجيء ضيف خفيف أو حتى جاءته يأجوج ، فكرمه دائما حاضرٌ .

ثم يقف على معاناة ضيف سعيد بن سلم ، فهو يتضور جوعا ، وقد وجد على رغيفه عبارة _ سيكفيكهم الله ما بدا ضوءُ نجم) فسعيد يريُد أن يكتفي ضيفه بالتأمل في ضوء النجم ، يجمع الشكل بين الرغيف والنجم ، وقد ختم على الخبز، وقد علا ختمهُ ختم سيدنا سليمان ، وهذا دليل الحرص والبخل ، ثم رحل الضيف من عند مالك بحمد وشكر ومن سعيد بذم .

أمَّا اختياره للألفاظ ، فكان موفقا مبدعا في الصور الشعرية التي أضاء بها جمال هذه الأبيات لاحظ قوله :

[جواد إلى المكارم ينمى]

[... أتته يأجوج من خلف ردم] والكثرة هنا بمعنى السخاء

[... ضيفه من الجوع يرمى]

[سيكفيكهم الله ...] توظيف لقوه تعالى ((فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم)) (31)

وهذا التوظيف يدل على المنع

[وإذا خاتم سليمان ...] توظيف ختم سليمان

وهذا دليل على أن يمنع منعاً باتاً أن يأخذ من الخبز شيئاً وهو الحرص الشديد والبخل المقيت .

رائعة هذه المقطعة ، التي استطاع فيها أبو الشمقمق ، أن ينقل لنا صورة حقيقية للمفاضلة والموازنة بين الممدوح والمهجو ، وهذه الصورة بالرغم من الصور الخيالية التي تجملت بها ، والتي من خلالها تجلى المعنى بالكامل ، فهي تعبر عن صورة حقيقية ملموسة عاشها الشاعر .

ثانياً ــ الموازنة بين الشاعرين متمثلة في :

1_ أوجه التشابه بين الشاعرين :

لقد تشابه الشاعران ؛ لأن ظروف حياتهما تكاد تكون واحدة ، فكلاهما ولد فقيراً ، وكلاهما عاشا حياة العوز والفقر والحاجة ، وكلاهما حسا بالنقص ، وبالتالي كان البحثُ عن ما يسد حاجاتهما ضرورياً ، فكان شعر الهجاء هو السلاح لذلك .

وتشابه الشاعران _ أيضاً _ في أنهما اشتركا في نفس المعاني ، واستخدما من قاموس الطبيعة ألفاظاً متشابه في الشتم والسَّبِّ ، فمن تلك الألفاظ عند الحُطيْئة [قباح الوجوه ، مثل التيوس ، الكلاب ، غربال ، مسحي وإبساس ، المتح والإمراس ، الفارك ، أرماس] .

ومن ألفاظ الشمقمق [كالحمار ، التزندق ، المخازي ، الكلب ، التيس ، الفيل ، استك]

كما استخدما شعر الهجاء في التكسب والإيذاء _ وأيضاً _ استطاعا توظيف الصور الشعرية المختلفة ، وذلك بفضل خصوبة خيالهما .

شعر كليهما بارع في الصياغة والديباجة .

2_ أوجه الاختلاف بين الشاعرين :

_ ترى الاختلاف عند الشاعرين في أن الحطيئة هجا نفسه وهجا أمه وأباه ، ولم يهجُ أبو الشمقمق نفسه وأمه وأباه .

_ هجاء الحطيئة لبعض الشعراء كان بسبب الاختلاف معهم ، أو بسبب إغرائه بالمال كما حصل في هجائه للزبرقان .

_ هجاء أبو الشمقمق للشعراء كان ناتجا عن بغضه لهم وحقده عليهم ، وبذلك استخدم لسانه كي يعطوا له جزية مرة في كل سنة .

_ اختلف الشاعران في الأسلوب ، فأسلوب الحطيئة يحتاج إلى التمعن والدربة ، فشعره صنعة وعلى القارئ أن يكون ذا دراية وخبرة بألفاظ العربية .

أمَّا أسلوب أبي الشمقمق فكان سهلا واضحا يجري بيسر على ألسنة الناس .

أمَّا الاختلاف في القصيدتين ، فكان الحُطيْئة كاذباً ومخادعاً ومُموهاً ، ناتجا عن اللوم والتمرد .

أمَّا أبو الشمقمق فكان صادقاً صريحاً .

وبالرغم من قصر المقطعة التي تم اختيارها للمفاضلة إلاّ أنها كانت أشد و أوقع في النفوس من قصيدة الحُطيْئة التي هجا بها الزبرقان .

الخاتمة :

تناولت الدراسة عنوان (دراسة موازنة في شعر الهجاء بين الحُطيْئة وأبي الشمقمق) وقد ترتبت على هذه الدراسة النتائج الآتية :

1_ هجاء الحُطيْئة ناتج عن اختلاله الجسدي والنفسي ، وحاجاته المادية ، فقد هجا كل من كان له علاقة بمعاناته .

2_ هجاء أبي الشمقمق ناتج عن اختلاله النفسي وحاجاته المادية ، وقد هجا كل مَنْ امتنع عن عطائه له .

3_ هجاء الحُطيْئة كان أسلوبه متينا رصيناً ، فالشاعر له مقدرة على صياغة قصائده صياغة محكمة .

4_ كان هجاء أبي الشمقمق موجزاً جاء على شكل مقطعات ولكنها سريعة الإيذاء مؤثرة في المهجو ، وقد صيغت سهلة خفيفة .

5_ الشاعران جعلا من شعرهما الهجائي سلاحا ذا حدين ، فتارة يتكسبان به، وتارة يضران به.

6_ لقد اعتمد الشاعران على الصور المحسوسة ، وقد اشتركا في نفس المعاني ، فاستخدما ألفاظها من البيئة المحيطة بهما .

7_ لقد تمكن الشاعران من استخدام اللغة للمعنى المراد استخدماً جميلا ، يؤكد شاعريتهما ، ومكانتها الأدبية الرفيعة فقد استطاعا أن يجعلا من شعرهما الهجائي متداولا بين الناس .

الهوامش :

1_ لسان العرب ، لابن منظور ، مادة ه ج و.
2_ معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب ، مجدي وهبه ، وكامل المهندس ، مكتبة لبنان _ ط 2 1984م 422 .
3_ طبقات فحول الشعراء ، لابن سلام الجمحى ، شرحه : أبو فهر محمود و محمد شاكر ، دار المدني بجدة ج 1 / 140 .
4_ تُنظر الترجمة بتصرف في ديوان الحُطيْئة ، شرح د. يوسف عيد ، دار الجبل ، بيروت ، ط 1 _ 1992/ 5 وما بعدها .
5_ تنظر الترجمة في ديوان أبي الشمقمق ، تحقيق واضح محمد الصمد ، دار الكتب العلمية ، بيروت ط 1 _ 1995م ، من ص وما بعدها .
6_ الكامل في اللغة والأدب ، للمبرد أبو العباسي محمد بن يزيد ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، طبع دار النهضة ، مصر ط 3 ج2 /24 .
7_ طبقات الشعراء ، لابن معتز ، تحقيق : عبد الستار أحمد فراج ، دار المعارف _ بمصر ، القاهرة ، ط3 / 129 .
8_ معجم الشعراء ـــ المرزباني ، أبو عبد الله محمد بن عمران ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، دار إحياء الكتب العربية / 397 .
9_ ديوان الحُطيْئة ، / 186 شرح د يوسف عيد ، دار الجبل ، بيروت ، ط 1 _ 1992.
10_ ديوان الحُطيْئة ، / 207 .
10_ ديوان الحُطيْئة ، برواية ابن السكيت ، دراسة /د. مفيد محمد قميحة دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان _ 1993م /14 .
10_ ديوان الحُطيْئة ، / 118 .
11_ ديوان الحُطيْئة ، / 35 .
12_ ديوان الحُطيْئة ، / 140 .
13_ ديوان الحُطيْئة ، / 184 .
14_ ديوان الحُطيْئة ، / 116 .
15_ ديوان الحُطيْئة ، / 101 .
16_ ديوان الحُطيْئة ، / 200 .
17_ ديوان أبي الشمقمق ، تحقيق واضح محمد العمد ، دار الكتب العلمية ، بيروت ط 1 _ 1995/ 82 .
18_ ديوان أبي الشمقمق ، / 72 .
19_ ديوان أبي الشمقمق ، / 37 .
20_ ديوان أبي الشمقمق ، / 66 .
21 _ ديوان أبي الشمقمق ، / 56 .

22_ ديوان أبي الشمقمق ، / 56 .
23_ ديوان أبي الشمقمق ، / 95 .
24_ ديوان أبي الشمقمق ، / 49 .
25_ ديوان أبي الشمقمق ، / 77 البيتان في نفس الصفحة ونفس القافية .
26_ ديوان أبي الشمقمق ، / 91 .
27_ ديوان الحُطيْئة ، مصدر سابق / 114.
28_ ديوان أبي الشمقمق ، مصدر سابق / 88 .
29_ سورة البقرة آية 137 .